النقلُ والعقل من المناهج التفسيرية في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)

"دراسة موضوعية"

أ. م. د. مسلم شاكر جبر

رئيس قسم علوم القرآن والحديث / كلية التربية / جامعة ساوه الأهلية

Muslim@sawauniversity.edu.iq

الملخص:

ترصد هذه الوريقات البحثية، الخلاصة الجوهرية للمنهج التفسيري لمدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، القائم على التوازن بين النقل (الرواية) والعقل (الاستدلال العقلي)، في منهج علمي يرفض الجمود على ظاهر النص دون العقل، ويرفض الاستقلال بالرأي دون نصوص صحيحة، أنه منهج يجمع بين أصالة المصدر (النقل الصحيح) وحيوية الأداة (العقل السليم)؛ لتحقيق الفهم الأمثل للقرآن وهداياته، والتكامل وعدم التعارض، ورفض الفهم الجامد للنصوص اذا تعارض مع بديهيات العقل أو قواعده القطعية، والوصول إلى الفهم الصحيح والصادق لمراد الله تعالى، مع الحفاظ على أصالة النص من التحريف المعنوي أو سوء الفهم، وإثبات أن الإسلام دين العقل والفطرة إلى جانب كونه دين الوحي.

الكلمات المفتاحية: النقل، العقل، المنهج، أهل البيت (عليهم السلام)، الموضوعية.

Abstract:

These research papers monitor the essential summary of the interpretive approach of the Ahl al-Bayt (peace be upon them) school, which is based on a balance between transmission (narration) and reason (rational deduction), in a scientific approach that rejects rigidity on the apparent meaning of the text without reason, and rejects independence of opinion without authentic texts. It is an approach that combines the authenticity of the source (authentic transmission) and the vitality of the tool (sound reason) to achieve the optimal understanding of the Qur'an and its guidance, integration and non-contradiction, and rejecting the rigid understanding of texts if it conflicts with the axioms of reason or its definitive rules, and arriving at the correct and true understanding of the will of God Almighty, while preserving the authenticity of the text from moral distortion or misunderstanding, and proving that Islam is the religion of reason and instinct in addition to being the religion of revelation.

المقدمة

الحمد لله الذي تتم بنعمة الصالحات والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعلمين، حجة الله على خلقه أجمعين، نبي الرحمة وامام الهدى عليه وعلى أله وأصحابه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد ...

يُمثل التفسير الديني ركيزة أساسية لفهم النصوص الشرعية، ومن هنا تبرز إشكالية المنهج الأمثل في علم التفسير بين المدارس الإسلامية، وفي هذا الإطار، تقدم مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) رؤية فريدة تجمع بين النقل المعصوم والعقل البرهاني، بوصفهما دليلين متكاملين لا متعارضين. لذا جاءت هذه الوريقات البحثية لتُسلَّط الضوء على الأسس المنهجية التي رسمتها هذه المدرسة، وكيفية توظيف النقل والعقل في تفسير القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، مع تحليل لآليات التكامل بينهما وأثرها في استنباط الأحكام.

أهمية الدراسة:

١. إبراز مدرسة أهل بيت (عليهم السلام) في الجمع بين النقل (الرواية) والعقل (الاستدلال).
١. كشف الخصائص المنهجية التي حفظت التفسير من الانحرافات.
٢. تقديم رؤية متوازنة تجمع بين الثبات النصي والمرونة العقلية.

تساؤلات الدراسة:

١. كيف شكل النقل والعقل نظاماً منهجياً متكاملاً في التفسير عند مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)؟
٢. ما طبيعة التوازن بين النصّ والاستنباط العقلي في فهم النصوص؟

اهداف الدراسة:

١. تحليل المفهوم الأصولي للنقل والعقل في فكر أهل البيت (عليهم السلام).
٢. استكشاف آليات تطبيق المنهج في تفسير القرآن والرواية.
٣. بيان دور العقل في تنقية النقل وتحديد المراد من النصوص.
٤. مقارنة هذا المنهج مع المدارس التفسيرية الأخرى (أهل الحديث، والمعتزلة، والأشاعرة).

المنهج الدراسي: المنهج الموضوعي، تتبع مفهوم "النقل والعقل" عبر المصادر الأساسية.

مخطط الدراسة:

١. المقدمة: وفيها موضوع الدراسة ومنهجها وأهميتها وتساؤلاتها وأهدافها.
٢. المطلب الأول: الإطار النظري للمنهج التفسيري عند مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).
٣. المطلب الثاني: الأسس العقائدية والعقلية لمنهج مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).
٤. المطلب الثالث: مقارنة منهجية بين المدرسة الامامية والمدارس الأخرى.
٥. الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

٦. فهرست المراجع.

المطلب الأول: الإطار النظري للمنهج التفسيري عند مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)

المحور الأول: مفهوم النقل وأدلته في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)

يُعتبر النقلُ في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) مصدراً أساسياً لمعرفة الأحكام الشرعية، ويشمل القرآن الكريم والسنة النبوية واقوال وتوجيهات الأئمة المعصومين.

تعريف النقل: ما نُقل إلينا من أقوال وأفعال وتقرير النبيّ (ﷺ) وأهل البيت (عليهم السلام) للمعرفة الشرعية، حيث يُبنى عليه فهم الدين وتطبيق أحكامه[١].

أنواع الدليل النقلي:

أولاً: القرآن الكريم: هو كلام الله تعالى المنزل على النبيّ (ﷺ) بواسطة جبريل (عليه السلام)، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، المكتوب بالمصاحف.

وظيفته: بيان العقائد، الأحكام الشرعية، الأخلاق، القصص، المواعظ، وتشريع العبادات والمعاملات[٢].

ثانياً: السنة النبوية: كُل ما صدر من المعصوم قول، أو فعل، أو تقرير.

مكانتها: هي المصدر الثاني للتشريع، مفسرة للقرآن، مبينة لمجمله، مقيدة مطلقه، مخصصه لعامة، وهي وحيُ من الله جل جلالة.

مكانة الدليل النقلي وأهمية:

١. المصدر الاساسي للتشريع: أي: المنبع الأصلي الذي تستقي منه الشريعة أحكامها، فلا شرع إلا بما جاء به النقل الصحيح.
٢. العمدة في العقائد: تقوم عقيدة أهل البيت (عليهم السلام) على ما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة من توحيد الله وصفاته واليوم الآخر.
٣. المرجع في الفقه والأحكام: تُستنبط جميع أحكام العبادات والمعاملات والجنايات وغيرها من الأدلة النقلية.
٤. الضابط للمعرفة الشرعية: يحدد النقل المجالات التي يتدخل فيها العقل ويستنبط، ويمنع العقل من التحكم بالنصوص[٣].

شروط الاعتماد على الدليل النقلي:

١. ثبوت النقل للقرآن الكريم بالتواتر القطعي الذي لا شك فيه.
٢. ثبوت السنة النبوية بثبوت السند إلى المعصوم وفق قواعد علم الحديث لضبط الرواة وعدالتهم واتصال السند فتُقبل السنة المتواترة والمشهورة سنداً ومتناً.
٣. صحة الدلالة: أن يكون النص واضح في الدلالة على الحُكم المراد استنباطه، أو قابل للتفسير والتأويل السليم دون تحميله ما لا يحتمله.
٤. ألا يعارض دليل نقلي آخر أقوى منه بالثبوت أو الدلالة.

المحور الثاني: العقل وحدوده في الاستنباط عند مدرسة أهل البيت (عليهم السلام):

اولاً: مفهوم العقل في المنظور الأمامي:

١. العقل: كقوة إدراكية فطرية غريزية يُميّز بها الإنسان الحق من الباطل، والحَسنَ من القبيح، ويدرك الكليات والعلاقات بين الأشياء والعقل حجة الله على خلقه وهي عقيدة راسخة في نصوص الأمامية[٤].

٢. العقل مصدر تشريعي مستقل في الأصول: يثبت به أصول الدين عند الامامية (التوحيد، العدل، النبوة، الإمامة، المعاد) بشكل مستقل عن النقل[٥]، وقد اتفقت الامامية على أن العقل طريق لمعرفة الله جل جلاله ... وأنه يستدل به على صدق النبي والإمام. كما أنه يدرك به الحُسن والقُبح، مما يشكل العدل الإلهي، والله تعالى لا يفعل القبيح ولا يخالف الحكمة[٦].

٣. العقل كأداة في الاستنباط: هو من الأصول الأربعة في استنباط الأحكام الشرعية إلى جانب الكتاب، والسنة، والاجماع الكاشف عن رأي المعصوم عند الامامية وله دور محوري في فهم النصوص (القرآن والسنّة)، واستنباط الأحكام من خلال قواعد خاصة[٧].

ثانياً: أدوار العقل في عملية الاستنباط الفقهي:

١. إثبات حجية الأدلة الأخرى: يُثبت العقل حجية الكتاب والسنة والإجماع.

٢. نقد الروايات ومعالجة التعارض (التعادل والترجيح) ويرفض الحديث الذي يخالف حكماً قطعياً عقلياً، مع الترجيح بين الروايات باستعمال الموازنة العقلية كموافقة القرآن، والسيرة العقلانية، وانسجام المضمون مع الأصول القطعية[٨].

٣. كاشف عن حكم الشارع مبدأ الموازنة "كُلُّ ما حَكَمَ بهِ العقلُ حَكَمَ بهِ الشَّرعُ"[٩],

فالحكم العقلي القطعي كوجوب ردّ الوديعة كاشف عن حكم الشارع.

٤. مصدر لأصول وقواعد استنباطية: البراءة العقلية (أصالة البراءة) إذا لم يرد دليل شرعي على حرمة شيء أو وجوبه، يحكم العقل بالبراءة الأصلية (الاباحة) عند عدم الدليل[١٠].

ثالثاً: حدود العقل في الاستنباط:

١. حُرمة المغيبات والتفاصيل التعبدية: وهي الغيب، كيفية الصفات الإلهية، تفاصيل يوم القيامة، تفاصيل عالم البرزخ، وغيرها هذه لا يدركها العقل وحدة، بل يحتاج إلى النقل الصحيح[١١]. وكذلك الاحكام التعبدية (المحضة التوقيفية) كعدد الركعات للصلاة، تفاصيل مناسك الحج، مقادير الصلاة وغيرها لا مجال للعقل في استنباطها إلا من خلال النص[١٢].

٢. عدم جواز التشريع المستقل في الفروع: العقل لا يشرع حكماً فرعياً جديداً بمجرد استحسانه، بل دوره كشف الحكم الشرعي الثابت عبرة الأدبة المعتبرة، أي: لا ولاية العقل في التشريع بل ولاية في الكشف عن التشريع الإلهي[١٣].

٣. عدم المعارضة للنص القطعي.

٤. الاحتياج الدائم إلى هداية الوحي: العقل البشري محدود وقابل للخطأ والهوى لذا فهو بحاجة إلى ضابطة الوحي، لتجنب الزلل في الاستدلال والاستنباط[١٤]. ونلاحظ من خلال ذلك ان مدرسة الامامية الاثنا عشرية موافقة ومتوازنة ورصينة تجاه الدليل العقلي، يجمع بين أعلاء مكانة العقل وربطه بسلطان الوحي، مع رفض الإفراط كبعض الفلاسفة أو التفريط كبعض اهل الحديث.

رابعاً: العقل أساس العدل الإلهي والاختيار:

ترفض الامامية نظرية الجبر ونظرية التفويض المطلق كبعض ما ذهبت بهِ الفرق، وتتبنى نظرية "الأمر بين الأمرين" أي: لا جبر ولا تفويض بل أمر بين ذلك، مستندة إلى أدلة عقلية على أن الإنسان فاعل مختار مسؤول عن أفعاله، دون الخروج عن إدارة الله الكونية وحكمة الله وعدله لا يستدل العقل على أن أفعال الله مبنية على الحكمة والمصلحة وانه لا يظلم أحداً، ولا يكلف الإنسان ما لا يطيق[١٥].

وخلاصة هذا المطلب أقول: تميزت مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) بمنهج متكامل يجعل العقل أصلاً مستقلاً في إثبات الأصول الكبرى وكذلك أداة محكمة لفهم النقل ونقده، وضابطاً أخلاقياً لإثبات العدل الإلهي وحرية الارادة، مع رفض للمقالات العقلية التي تتجاهل النص الذي يسهل نور العقل الفطري.

المحور الثالث: العلاقة التكاملية بين النقل والعقل والجمع بينهما:

تبرز مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) كمنظومة فكرية متكاملة قدمت رؤية واضحة ومتوازنة تُرسي دعائم التكامل بين هذين المصدرين المعرفيين، رافضة الإفراط في الاعتماد على أحدهما وإهمال الآخر. هذه الدراسة الموضوعية تتناول أسس هذه العلاقة التكاملية وآلياتها ومظاهرها في تراث أهل البيت (عليهم السلام).

أولاً: الأسس النظرية للتكامل:

١. وحدة المصدر الإلهي: ينطلق التكامل من الإيمان بأن الله هو مصدر كل الحقائق، فالوحي (النقل) هو خطاب الله المباشر، والعقل هو هبة الله للإنسان ليفهم خطابه ويدرك آياته في الكون والنفس ومعرفة الله هي الأساس وهي ممكنه في العقل؛ لكن كمالها الإيمان بالوحي[١٦].

٢. التوافق الجوهري: لا يمكن أن يتعارض الوحي الصحيح مع العقل السليم، فالحق لا يضاد الحق، أي تعارض ظاهري مرده إما إلى فهم قاصر للنص، أو خطأ في تطبيق العقل، أو عدم صحة النقل (ضعف السند أو الدلالة)[١٧].

٣. تحديد المجالات والحدود: الأمور الغيبية كالتفاصيل الدقيقة للجنة والنار، وبعض التفاصيل الشرعية التعبدية، والتأريخ النبويّ، وتفاصيل الأحكام الشرعية، وكذلك مجالات سيادة العقل، إثبات أصول الدين، إدراك الحسن والقبيح، وكذلك مجال التداخل والتكامل، وفهم النصوص وتأويلها، استنباط الأحكام الفرعية وتطبيق الكليات على الجزئيات[١٨].

ثانياً: آليات التكامل والجمع بينهما:

١. العقل قاضٍ على صحة النقل: أكد الأئمة (عليهم السلام) على دور العقل في نقد الروايات وتمييز الصحيح من السقيم، ومن أشهر ما ورد عن جعفر الصادق (عليه السلام): "إذا وَرَدَ عليكم حديث فوافق القرآن فخذوه، وإذا لم يوافق القرآن فاضربوا بهِ عرض الحائط"(١٩).

٢. العقل مُسلَّمٌ ومُسدَّد للنقل: يثبت العقل وجود الله ووحدانية وصفاته الكمالية، وضرورة إرسال الرسل، هذه القضايا أساسية تُبنى على البراهين العقلية قبل ورود النص، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، إشارة إلى قيمة العلم والعقل(٢٠).

٣. النقل هادٍ ومُكمل للعقل: تحديد التفاصيل التشريعية فيما يتعلق بالعبادات والمعاملات والأحكام التفصيلية التي لا يستقل العقل بإدراك تفاصيلها أو لا يصل إليها قطعاً، يأتي النقل ليبينها قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر:٧]، وكذلك تكميل المعرفة وتعميقها ليقدم النقل حقائق غيبية وتفاصيل عقائدية وتاريخية وأخلاقية تتجاوز قدرة العقل البشري بمفرده فيكمل معرفته ويوسع آفاقه، مع ضبط المسار العقلي من انحراف الوقوع في الضلالات الفلسفية أو التأويلات الباطلة أو الانسياق وراء الأهواء تحت غطاء العقلانية(٢١).

ثالثاً: أهم ضوابط وضمان التكامل:

١. سلامة النقل: ضرورة التحقق من صحة السند ودلالة المتن، وموافقة للقرآن الكريم والعقل القطعي، فقد روي عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) قال: "ما خالف كتاب الله فردوه"(٢٢).

٢. سلامة العقل: تنقية العقل من الأهواء والانحرافات والظنون، والالتزام بالمنطق السليم والاعتراف بحدوده في المجالات الغيبية البحتة، فقد روي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال: "من اتكل على زلة رأيه ضل"(٢٣).

٣. المرجعية الثابتة: في حال الاشتباه أو اتعارض الذي يصعب حله، يكون المرجع هو العودة إلى الثقل الثاني أهل البيت (عليهم السلام)، باعتبارهم المفسرين للوحي والمرشدين للعقل البشري، الحديث: "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ... لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض"(٢٤).

ونرى من خلال هذه الدراسة الموضوعية للعلاقة بين النقل والعقل في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) نموذج رصين ومتكامل للمعرفة الدينية فهي ترفض إقصاء أي من المصدرين العقل المحض أو النقل المجرد، وتؤسس لتفاعل وتكامل ديناميكي بينهما. العقل هو الضوء الذي يكشف صحة النقل ويفهمه ويستنبط منه، والنقل هو الدليل الذي يهدي العقل ويضبط مساره ويُغذيه بالحقائق الغيبية، هذه هي العلاقة التكاملية المتوازنة التي تفهم الدين فهماً صحيحاً ومتجدداً.

المطلب الثاني: الأسس العقائدية والعقلية للمنهج:

المحور الأول: حجية العقل في أصول الدين من منظور الصادق (عليه السلام):

تعتبر مسألة حجية العقل من المسائل المحورية في علم الكلام الإسلامي وأصول الدين، ولدى مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) بشكل خاص، ويبرز دور الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) "ت٨٣-١٤٨هجرية" كمنظور رئيسي ومؤسس عقلاني متوازن في فهم العقيدة الإسلامية، خاصةً في أصول الدين.

اولاً: الأساس النظري لحجية العقل عند الإمام الصادق (عليه السلام):

١. العقل كأداة فطرية إلهية: يرى الإمام أن العقل هبة إلهية وميزة إنسانية كبرى جعلها الله تعالى في الإنسان ليفهم بها ذاته وخلقه وشرعه، فهو نور داخلي يهدي إلى الحق، جاء في الحديث: "العقل دليل المؤمن"[٢٥], كما جاء في الحديث الآخر: "إنَّ الله تبارك وتعالى خلق الخلق فلما خلقهم جعل لهم العقل"[٢٦], وهذا الحديث يؤسس كون العقل أداة معرفة أولية ومنحة إلهية.

٢. العقل مصدر مستقل للمعرفة قبل النقل "الوحي": أكد الإمام الصادق (عليه السلام) أنَّ العقل قادر على ادراك بعض الحقائق الكبرى بشكل مستقل عن الوحي، خاصة في مجال أصول الدين، منها اثبات الصانع من خلال التأمل في نظام الكون وحدوثه جاء في الحديث: "أول العبادة معرفته، وأصل معرفته توحيده، ونظام توحيده نفي الصفات عنه"[٢٧], هذا يشير إلى أنَّ المعرفة العقلية بالتوحيد هي أساس العبادة، وكذلك اثبات الحاجة إلى النبوة؛ لئن العقل يدرك حاجة البشر إلى الهداية لاستكمال معرفتهم بالحقائق الغيبية وتفاصيل التشريع التي يعجز عن ادراكها بمفرده، والعقل السليم يدرك حسن العدل والصدق وقبح الظلم والكذب والخيانة بشكل بديهي، وهذا يشكل أساساً عقلياً لقاعدة "الحسن والقبيح العقليين" التي تُبنى عليها نظرية العدل الإلهي في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

٣. العقل معيار لفهم النقل "الوحي": لم يكتفي الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) بدور العقل التمهيدي قبل الوحي، بل جعله أداة أساسية لفهم النصوص الدينية (القرآن والحديث)، وكذلك رفض النقل المخالف للعقل الصريح، وأداة لفهم الآيات المتشابهات في القرآن ضمن ضوء المحكمات وفقاً لقواعد عقلية سليمة، بالإضافة إلى نقد الروايات وهو معيار لتميزها.

٤. التوازن بين العقل والنقل: منهج الإمام هو منهج توازني رافض للإفراط والتفريط، رفض التعطيل "انكار دور العقل" الذي يمثله بعض التيارات النصية الجامدة، ورفض التفويض "الاعتماد على العقل مطلقاً دون الوحي"، والذي وقعت فيه بعض الفرق العقلانية المتطرفة، جاء في الحديث: "العقل ما عُبد بهِ الرحمن واكتسب به الجنان"[٢٨], وخذا يربط العبادة التي مصدرها الوحي، فالعقل هو الذي يدرك وجوب العبادة وكيفيتها المستفادة من الوحي.

ثانياً: حدود حجية العقل عند الإمام جعفر الصادق (عليه السلام):

رغم التأكيد على حجية العقل، وضع الإمام حدود واضحة لدوره منها:

١. الحدود الذاتية: العقل البشري محدود بطبيعته، لا يستطيع إدراك كنه ذات الله جل جلاله أو تفاصيل الغيب المطلق كيفية المعاد وتفصيله مثلاً وغيرها.
٢. الحدود الموضوعية: مجال العقل المستقل هو أصول الدين، أما فروع الدين فمصدرها الأساسي هو الوحي "القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة"، العقل هنا يلعب دوراً في فهم النصوص واستنباط الأحكام ضمن أصول معينة "أصول الفقه" وليس التشريع المستقل.
٣. الخضوع للوحي بعد ثبوته: بمجرد ثبوت الوحي يقيناً، يصبح العقل خادماً موصلاً له في الفهم والتطبيق، وليس حاكماً عليه بالرفق المطلق مع ضرورة التزكية وتنقية الأهواء والشبهات من خلال التقوى واتباع الوحي، جاء في الحديث: "ما ضُرب عبد بعقله دون هواه إلاَّ صلح"[٢٩].

يتبين لنا من خلال ذلك منهج الإمام الصادق (عليه السلام) وأقواله وأدلته في المناظرات الكلامية أنه أرسى قواعد منهج عقلاني متين ومتوازن في مجال أصول الدين، ومنهج علمي متكامل يحقق الانسجام بين البرهان العقلي والوحي الإلهي، ويشكل حجر الزاوية في الفكر الكلامي الامامي.

المحور الثاني: دور العقل في نقد الإسرائيليات والروايات الضعيفة:

الإسرائيليات: هي القصص والأخبار والتفاسير التي دخلت التراث الإسلامي من المصادر اليهودية والمسيحية أي: العهدين القديم والجديد خاصة في مجال تفسير القرآن وقصص الأنبياء، وقد شكلت ظاهرة انتشار الإسرائيليات تحدياً للعقل السليم في تمييز الصحيح من السقيم، والموافقة للوحي من الدخيل، وقد تميزت مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) بمنهج واضح في التعامل مع هذه المرويات بمنهج يقوم على توظيف العقل كأداة محورية في النقد والتمحيص إلى جانب التمسك بالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة كمعيار ومقياس أعلى.

اولاً: موقف مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) من الإسرائيليات، رفض مبدئي مع نقد انتقائي؛ دون الرفض جملةً وتفصيلاً، بل اتخذت موقفاً نقدياً يقوم على:

١. التأكيد على كفاية القرآن والسنة: أنَّ القرآن الكريم هو المصدر الأساسي والأول وأن السنة النبوية هي المبينة، وهي كافية في أصول الدين دون الحاجة لاستيراد روايات أهل الكتاب المشكوك في أصولها ومتونها، وقد ورد عن الصادق (عليه السلام) قال: "إياكم أن تروا علينا حديثاً على غير وجهه فإنا إذا .....الحديث"[٣٠].
٢. بيان مصدر التشويه: أشار الأئمة (عليهم السلام) إلى كثيراً من الإسرائيليات محرّف أو مختلق نتيجة تحريف أهل الكتاب لكتبهم أو وضع القصّاصين، ورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، ان التوراة والإنجيل لم يغيرا كلمه؛ ولكنهم يحرفونها على غير تأويلها[٣١].
٣. التحذير من النقل بلا تمحيص: التحذير من أي رواية تلقيّ خاصة تلك التي تروى عن أهل الكتاب، دون عرضها على محك العقل والوحي، وقد ورد عن الصادق(عليه السلام): "لا تقبلوا علينا خبراً إلاَّ ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من احاديثنا المتقدمة"[٣٢].

ثانياً: دور العقل كأداة نقدية في التعامل مع الإسرائيليات:

لم يكن دور العقل هامشياً، بل كان فاعلاً ومركزياً ف منهج أهل البيت لتفنيد الإسرائيليات وله عدة مستويات منها:

١. العقل مبدأ الموافقة للعقل السليم: أو مرجعية أولية لنقد ورفض أي رواية تخالف البديهيات العقلية أو تناقض الحقائق القطعية، فالمرويات التي تنسب إلى الأنبياء (عليهم السلام) ما لا يليق بمقام النبوة من جهل أو ضعف أو معصية، أو التي تتصف بالخرافة أو الاسطورة البعيدة عن المنطق، تُرفض عقلاً أولاً قبل عرضها على النص، مثل: الروايات التي تصور الأنبياء في صورة سلبية "كذنب داود(عليه السلام)" ترفض لاستحالة صدورها عن الامام، فقد جاء عن الرضا(عليه السلام): "ان الله عز وجل لم يخطئ الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) في اختيارهم واصطفاءهم"(٣٣).

٢. العقل كأداة لتحكيم القرآن والسنة:

اعتبر الأئمة (عليهم السلام) القرآن والسنة هما الميزان الأعلى والحَكَم والعقل فكل من الإسرائيليات تخالف نصاً قرآنياً ونبوياً صحيحاً تُردّ، والعق هنا هو الذي يدرك التعارض ويحكم ويرد المخالف.

ثانياً: أمثلة تطبيقية على استخدام العقل في نقد الإسرائيليات:

١. قصة هارون (عليه السلام) وعبادة العجل: ترفض مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) روايات تزعم أن هارون (عليه السلام) شارك في عبادة العجل أو سكت راضياً، لأنها تصادم القرآن الذي برأه صراحةً قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي٩٠﴾ [طه :٩٠]، وتخالف العصمة وتناقض العقل في تصوير نبيّ يشرك بالله بعد علمه ومعاجزه(٣٤).

٢. قصة داود وسليمان (عليهم السلام): كما رفضت الروايات ايضاً التي تُنسب لداود الخطيئة مع امرأة، وإلى سليمان (عليه السلام) عبادة الأصنام تحت تأثير زوجاته؛ لأنها تخالف القران الذي يمدحها ويجعلها من المصطفين، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ١٧﴾ [ص:١٧]، وقوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ٣٠﴾ [ص: ٣٠]، وتصادم حكمة الله في اختيار أنبيائه وعصمتهم، وتناقض العقل، مع ما عُرف عنهما الحكمة والعبادة(٣٥).

٣. قصة الغرانيق المزعومة: رفض لرواية الغرانيق التي تزعم أن الشيطان أوحى للنبيّ (ﷺ) بآيات تمجد الأصنام جملةً وتفصيلاً لاستحالتها عقلاً، ونقضها القرآن قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ٤﴾ [النجم: ٣-٤]، لتعارضها مع عصمة النبيّ (ﷺ).

لذا نرى دور العقل في نقد الإسرائيليات موقف أهل البيت (عليهم السلام) منه هو صيانة العقيدة الإسلامية من الشوائب والشرك والخرافات الواردة، واظهار العقل كأداة نقدية فاعلة وضرورية لا بديل للوحي، بل خادم وموصل له ومنفّذ لمعاييره. فالعقل هنا عقل مستنير بالقرآن والسنة، يعمل وفق معايير موافقة للسليم، ومنهجاً حيّا في التعامل مع أي رواية أو فكرة.

المحور الثالث: النقل كمصدر لتأصيل القواعد العقلية:

تؤسس مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) فكرة التلازم والتعاضد بين الوحي (النقل) و(العقل)، وهذا الدور المركزي الذي يلعبهُ النقل (القرآن والسنة) في تأصيل وتأسيس القواعد العقلية الكلية التي تشكل أساس الاستنباط الفقهي والأصولي والفكري عند هذه المدرسة، وكيف أن النقل لا يقدم فقط تفصيلات، بل يمنح العقل أسسًا ومبادئ كلية يُبنى عليها.

أولاً: الإطار النظري:

١. التلازم ورفض التعارض: العقل السليم والوحي لا يمكن أن يتعارضا؛ لأنهما من مشكاة واحدة (الله جل جلاله) فالله هو الخالق للعقل ومنزل للوحي، أي تعارض ظاهري مرده إما إلى خطأ في فهم النقل أو قصور في تطبيق العقل أو عدم وصول النقل الصحيح، جاء عن الصادق(عليه السلام) "العلمُ دليل الإيمان، والإيمان دليلُ العقل، والعقلُ دليل العمل، والعملُ دليلُ النجاة"[٣٦], وعن الرضا (عليه السلام): "ان الله تبارك وتعالى بين لخلقه سبيل الرشاد بنور العقل فمن عَقَلَ عن الله عَبَده ومن لم يعقل عن الله جَحَدَهُ"[٣٧].

٢. النقل مصدر إضاءة وتأصيل للعقل: لا يكتفي النقل بتفصيل الأحكام بل يلعب دوراً جوهرياً في: تأكيد حجية العقل وتحديد نطاقه وإمكاناته ويوضح له مجالات عمله وحدوده، فالعقل وحده قد يعجز عن إدراك تفاصيل التشريعات أو الغيب المطلق، النقل يرشده إلى ما يمكن إدراكه وما يجب الوقوف عليه.

ثانياً: آليات تأصيل القواعد العقلية عبر النقل:

١. النقل مصدر مباشر صياغة القاعدة: هناك نصوص واردة عن الأئمة (عليهم السلام) تقدم القاعدة بشكل مباشر وصريح، كقاعدة عامة. المثال الأبرز قاعدة: "لا ضرر ولا ضرار في الإسلام" المروية عن الرسول (ﷺ) في مصادر الفرقين، هذه الجملة القصيرة هي تأسيس نقلي لقاعدة عقلية كلية (رفع الضرر) أصبحت أساساً لفروع فقهية لا تحصى، روي عن الإمام علي (عليه السلام): "حُكم الله لا يدرك بالعقول، ولا يصاب بالظنون ولكن بالكتاب والسنة"[٣٨], هذا يؤكد أن القواعد الحاكمة لفهم الدين تستمد من النقل.

٢. النقل مصدر لتأييد وتأكيد القواعد العقلية البديهية: تأكيد حسن العدل وقبح الظلم، بديهية عقلية جاء النقل ليؤكدها ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، وليثبت أنها معيار للحكم على الأفعال والأحكام، قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، يقول الإمام علي (عليه السلام): "الظُلم يُردي ويُبقُ، والعدل يُنجي ويفلقُ"[٣٩], هذه النصوص لا تكتفي بالإخبار، بل تُأصل للقاعدة العقلية وتجعلها مرجعاً في فهم عدالة التشريعات الإلهية وفي نقد أي حكم يبدو ظالماً.

٣. النقل مصدر لترجيح العقل عند الاشتباه أو الشبهة، في حال تعارض الأدلة النقلية الظاهرية أو وجود شبة تحول دون تطبيق القاعدة العقلية بوضوح يأتي النقل ليدفع الشبة ويرجح جانب العقل، كقول الصادق (عليه السلام): "ضعوا أمر أخيكم على أحسنه حتى يأتيكم ما يغلبكم منه، ولا تضنوا بكلمة خرجت من أخيكم سُوءاً وأنتم تجدون لها في الخير محملاً"[٤٠]، هذه الرواية تؤسس لقاعدة عقلية في حسن الظن وحمل الكلام على المحمل الحسن، مستمدة من النقل ذاته، وقد وضعت مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) شرطاً أساسيا

لقبول الرواية هو عدم مخالفتها للعقل القطعي، فالنقل الصحيح لا يمكن أن يعارض العقل السليم، هذا المبدأ نفسه (العرض على العقل) هو قاعدة عقلية أساسية في علم الدراية، وقد استندت في تأصيلها للنصوص تؤكد على رفض ما يخالف الكتاب والعقل[٤١].

يتضح مما سبق أن النقل (القرآن والسنة) يلعب دوراً محورياً لا غنى عنه في تأصيل وتأسيس القواعد العقلية الكلية عند مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، بل المنبع الذي تستقي منه هذه المدرسة في الفكر والاستنباط.

المطلب الثالث: مقارنة منهجية بين المدرسة الامامية والمدارس الأخرى

تعد مسألة العلاقة بين النقل (الوحي: القرآن والسنة) والعقل (الأدلة العقلية) من المحاور الجوهرية في الفكر الإسلامي وتظهر الاختلافات المنهجية بوضوح بين المدرسة الامامية والمدارس الكلامية الأخرى كالأشاعرة والمعتزلة والسلفية.

أولاً: منهج المدرسة الامامية:

١. التكامل ورفض التعارض، العقل حجة باطنة ويعتبر أداة إلهية لإدراك الحقائق، وهو مصدر مستقل لإثبات أصول الدين (التوحيد، والنبوة، والمعاد) وفهم النصوص واستنباط الأحكام عبر القواعد الأصولية العقلية[٤٢].

٢. التحسين والتنقيح العقليان: يدرك العقل الحسن للأفعال وقبحها ذاتياً (كحسن العدل وقبح الظلم) بشكل مستقل عن الشرع، ويأتي الشرع مؤكداً ومفصلاً لهذا الإدراك[٤٣].

ثانياً: مناهج المدارس الأخرى:

١. **المدرسة الأشعرية:** تقدم النقل على العقل عند التعارض يُقدم النقل ويؤول العقل أو يُهمش[٤٤]، نفي التحسين والتقبيح العقليين أي: الحسن والقبيح شرعيان فقط، فلا يدرك العقل حسن شيء أو قُبحه إلا بعد ورود الشرع[٤٥]، ودور العقل يقتصر على إثبات وجود الله والنبوة العامة والدفاع عن العقائد، ولا يعتبر مصدراً مستقلاً للأخلاق أو التشريع، علماً بأن مرجعية النقل تعتمد كُتب الحديث السنية (كصحيحين) وأقوال السلف دون اشتراط العصمة في النقل بعد النبيّ (ﷺ)[٤٦].

٢. **مدرسة المعتزلة:** سيادة العقل، عند التعارض يُقدم العقل ويُؤَوَّل النقل ليتوافق معه[٤٧]، والتحسين والتقبيح العقليان يؤمنون بأن العق يدرك الحسن والقبيح الذاتيين للأفعال استلالاً، ويبنون عليه أصولاً كوجوب شكر النعم وزوم إرسال الرسل، ودور النقل مؤكد وفصل للمعرفة العقلية، لكن خاضع لتمحيص العقلي، والقرآن والسنة المتواترة أو المستفيضة التي تقبلها الأدلة العقلية[٤٨].

٣. **المدرسة السلفية:** رفض **سلطة** العقل المستقلة، خاصة في أمور العقيدة (كصفات الإلهية) واعتبار الفلسفة وعلم الكلام المذموم من البدع[٤٩], كما ان المدرسة تنفي التحسين والتقبيح العقليين المطلقين، الحسن والقبيح تابعان لأمر والنهي الشرعي، ومرجعية النقل لديهم وفق فهم الصحابة والتابعين (رض) مع الاخذ بظواهر النصوص ونفي التأويل في العقيدة[٥٠].

نلاحظ ان هذه المقارنة كشفت لنا في هذه السطور عن تميز منهج أهل البيت (عليهم السلام) بالتوازن بين النقل والعقل حيث يجعل العقل مصدراً مستقلاً وحَكَماً على صحة النقل، مع الايمان بعدم تعارضهما، بينما تطغى نزعة النقل عند الأشاعرة والسلفية، وتَغلب نزعة العقل عند المعتزلة ويظل هذا التوازن هو السمة الفارقة لمنهج المدرسة الامامية.

الخاتمة

أثبتت هذه الرحلة القصيرة من خلال الوريقات البحثية أن منهج أهل البيت (عليهم السلام) في التفسير يُشكل نموذجاً متوازناً يجمع بين:

- سلطة النقل المعصوم (القرآن والسنة) كمصدر أساسي للمعرفة الدينية.
- حيوية العقل البرهاني كأداة ضابطة لفهم النصوص ورفع التعارض الظاهري. وقد تجالى هذا التكامل في: رفض إقصاء أيٌّ من الدليلين لصالح الآخر (برفض نهج الأشاعرة والمعتزلة)، مع الاعتماد على النقل يُحدد الإطار، والعقلُ يُنظم الآليات.
- لا انفصام في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) بين الوحي والعقل: فالعقل نوره الوحي، والوحي غذاؤه العقل.
- قدم لنا هذا المنهج رؤية تحريرية للفكر الإسلامي: تحرير النص من القراءات الحرفية المتجزأة، وتحرير العقل من الوقوع في فخّ التفسير المادي المحض، وهو ما يجعله قادراً على مواكبة التحولات الفكرية دون التخلي عن الثوابت.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِ العالمين

فهرست المراجع

- **القرآن الكريم**
- الميزان **في** تفسير القرآن، الطبطبائي محمد حسين ١٤٠٢هجرية، ط١، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٧هجرية.
- التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، ١٤٠٠هجرية، ط١، بيروت، دار لعلم للملايين، ١٩٧٤م.
- البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي، ١٤١٣هجرية، ط١، قم، مؤسسة إحياء الخوئي، ١٤٣٠هجرية.
- الملل والنحل، الشهرستاني أبو الفتح، ٥٤٨هجرية، ت: محمد بدران، ط٣، بيروت، دار المعرفة.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي،٩١١هجرية، ت: محمد أبو الفضل، ط٤، بيروت، دار التعارف، المكتبة العصرية ١٤٢٦هجرية.
- الإنسان والعقل، مطهري مرتضى،١٣٩٩هجرية، ترجمة عبد المنعم الخاقاني، ط٣، بيروت دار التعارف ١٩٩١م.
- المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، ١٤٠٠هجرية، محاضرات في التفسير والمنهج، ط١، بيروت، دار المعارف ١٩٧٩م.
- العقل والنقل، محمد باقر الحكيم، ١٤٢٨هجرية، ط١، بيروت، دار الهادي ١٤٢١هجرية.

❖ بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ١١١١هجرية، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣هجرية.
❖ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ٥٤٨هجرية، لجنة من العلماء، ط١، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٥هجرية.
❖ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧٧٤ هجرية، ت: سامي سلامة، ط١، الرياض دار طيبة، ١٤٢٠هجرية.
❖ مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي، ٦٠٦هجرية، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٤٢٠هجرية.
❖ الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، ٣٢٩هجرية، ت: علي أكبر الغفاري، ط٥، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٣ش.
❖ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري،٢٥٦هجرية، ت: محمد زهير، ط١، دمشق، دار طوق النجاة ١٤٢٢م.
❖ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ٢٦١هجرية، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٤ هجرية.
❖ مقارنة المذاهب، جعفر السبحاني، ط١، قم، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، ١٤٣٠ هجرية.

الهوامش

(١) ينظر: عدة الأصول، للطوسي: ٩٨/١.
(٢) ينظر: تصحيح اعتقادات الامامية: ١٣٥.
(٣) ينظر: المكاسب، الأنصاري: ١٠٧/٢، وينظر: بحوث في علم الأصول: ٢٩/٤.
(٤) ينظر: كتاب العقل والجهل، الكافي للكليني: ١٢/١.
(٥) ينظر: أوائل المقالات، الشيخ المفيد: ٣٩.
(٦) ينظر: الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى: ٢٢٣.
(٧) ينظر: معارج الأصول، المحقق الحلي: ٨٥.
(٨) ينظر: مرآة العقول، العلامة المجلسين: ١١٠/١، وينظر: الشهيد الصدر، دروس في علم الأصول: ٣١٢.
(٩) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ٥٩/٢٧.
(١٠) ينظر: فصول في علم الأصول، المحقق النائيني : ٨٩.
(١١) ينظر: التوحيد، الصدوق، باب ٢/ ح١ عن الصادق (عليه السلام) قال: "كلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود عليكم".
(١٢) ينظر: زبدة البيان في أحكام القرآن، المحقق الاردبيلي: ١٠.
(١٣) ينظر: المعالم الجديدة للأصول، الشهيد الصدر: ١٨٣.
(١٤) ينظر: وسائل الشيعة، الحر العاملي: ٦٠/٢٧.
(١٥) ينظر: الاقتصاد، الشيخ الطوسي: ١٢٤-١٣٠.
(١٦) ينظر: نهج البلاغة، الخطبة الأولى، قول الإمام علي (عليه السلام): "أَول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق بِهِ".
(١٧) ينظر: أصول الفقه، ج١، مبحث التعادل والتراجيح مبدأ "تنافي الأدلة".
(١٨) ينظر: الإنسان والقدر، الفصل الخاص بالعقل والوحي، الشهيد مرتضى مطهري.
(١٩) وسائل الشيعة: ٧٥/١٨ وينظر: التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي: ٥/١.
(٢٠) ينظر: المصدر نفسه: ٣٤/٧.

(٢١) ينظر: نهج البلاغة، الشريف الرضي، حكم الإمام علي (عليه السلام)، رقم ١٦١.

(٢٢) الكافي، للكليني، ج١، كتاب فضل العلم، باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب، ح٣.

(٢٣) نهج البلاغة ، الشريف الرضي، حكم الإمام علي (عليه السلام) الرقم: ١٦١.

(٢٤) رواه أحمد بن حنبل في المسند، والترمذي بالسنن، والحاكم في المستدرك، وغيرهم بألفاظ متقاربة، وهو متواتر عند الشيعة، وينظر: وسائل الشيعة، الحر العاملي: ٣٤/٢٧.

(٢٥) الكافي: ١١/١.

(٢٦) المصدر نفسه: ١٣/١.

(٢٧) التوحيد، الصدوق: ٣٣.

(٢٨) التوحيد، الصدوق: ١١/١.

(٢٩) تحف العقول: ٣٥٨.

(٣٠) الكافي: ٥٠/١.

(٣١) ينظر: تفسير القمي، علي بن إبراهيم: ١١٩/١.

(٣٢) الكافي: ٦٩/١، (الحديث مشهور ومستفيض ويعتبر من الأصول العملية في قبول الحديث عند الامامية).

(٣٣) عيون الأخبار، الصدوق: ٢٦٩/١.

(٣٤) ينظر: بحار الأنوار، المجلسي: ٣٤٢/١٣.

(٣٥) ينظر: تفسير العياشي، محمد بن سعود: ٢٢٠/٢.

(٣٦) الكافي: ٢٥/١.

(٣٧) المصدر نفسه: ١٣/١.

(٣٨) نهج البلاغة: الخطبة: ١٢٥.

(٣٩) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي عبد الواحد بن محمد (١٤١٠ هجرية).

(٤٠) الكافي: ٣٦٢/٢.

(٤١) ينظر: علل الشرائع، الصدوق: ٩١/١.

(٤٢) ينظر: أصول الفقه، المظفر: ٧٥/١-٨٢.

(٤٣) ينظر: الاقتصاد، الطوسي، باب التحسين والتقبيح: ١٢٠-١٢٥.

(٤٤) ينظر: الارشاد إلى قواطع الأدلة، الجويني: ١٥٠.

(٤٥) ينظر: مقالات الإسلامي، أبو الحسن الأشعري: ٢٩٥.

(٤٦) ينظر: درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمة: ٩٠/١.

(٤٧) ينظر: شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار: ١٥٠-١٦٠.

(٤٨) ينظر: المصدر نفسه، وينظر الكشاف، للزمخشري.(المقدمة) وينظر: الانتصار، عبد الرحيم الخياط: ٥٥.

(٤٩) ينظر: مجموع الفتاوى: ٢١٠/١.

(٥٠) ينظر: العقيدة الواسطية، مجموع الفتاوى: ١٢٨/٣.